سرُّ اتباع الحقّ

خطبة الجمعة للدكتور محمود أبو الهدى الحسيني في جامع العادلية بحلب بتاريخ ٢٠٠٩/١٠/٣٠م

قد يتساءل الإنسان: لماذا يحيد الناس عن اتباع النماذجِ الكاملة، والمنهجِ الواضحِ الذي أنـــزله الله تبارك وتعالى ليتحقق الإنصاف في الأرض وتستوي عليها العدالة؟

فالمنهج واضح، والرسلُ وخاتمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم نموذجٌ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومع كثرة الأزمات التي يدخل العالم فيها كلَّ يوم وتزداد شدّة وحدّة زمنًا بعد زمن، فمع كل هذا يبقى أكثر الناس بعيدين عن هذا الميزان، الذي هو المنهج والنموذج الإنسانيّ الربانيّ، الذي عصمه الله سبحانه وتعالى وجعله للناس قدوة وأسوة.

فما سرّ إعراض الإنسان عن الاتباع؟ وما سرّ الاتّباع؟

إنها قضية تستحق أن يقف الإنسان عندها، لأننا جميعًا بحاجة إلى هذا الاتباع لتصحيح اضطراب حياتنا الذي نراه بيننا ومن حولنا.

وثمّة أسباب كثيرة، لكن من أسباب الاتباع: أن يُعمِل الإنسان فكره، وأن يستعمل عقله متدبّرًا ومتفكرًا في الآيات والدلائل.

وهكذا نجِد على سبيل المثال رسولاً من رسل الله عليه الصلاة والسلام يوجّه قومه إلى تلك الآيات لعلهم بنظرهم يصلون إلى الاتّباع، ونقرأ على سبيل المثال في سورة نوح قوله تعالى:

{إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، قَالَ يا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ، أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ، يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ، قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا، فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا، وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا، ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا، ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا، فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا، وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا، مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا، وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا، أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا، وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا، وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتًا، ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا، وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا، لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا، قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا} [نوح:١-٢١].

إنها صورة مفصلة، وسمى الله سبحانه وتعالى هذه السورة باسم نوع عليه الصلاة والسلام لأنها كانت تعرض دعوته بشكل مفصل.

ونلاحظ في الآيات التي قرأناها مواظَبةً شديدة من سيدنا نوح على الدعوة إلى الله، ونلاحظ أنه كان يوجههم إلى الآيات ويكرّر عليهم أنواع الأدلة، وهو يقول لهم: {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا، وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا، وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتًا}

وهو الذي قال لهم: {وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا}.

إنه تحدث معهم كثيرًا في الأدلة العقلية التي إن تفكَّر الإنسان فيها فإنه لابد سيهتدي إلى طريق الصواب.

وفي سورة هود يقول الله سبحانه وتعالى وهو يحكي عن دعوة نوح عليه الصلاة والسلام:

{قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا} [هود: ٣٢]

فشهد القرآن الكريم لسيدنا نوح عليه الصلاة والسلام أنه قد أكثر من الأدلة والبراهين.

ولكنهم مع كل هذا ومع أنه دعاهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، نجد أن النتيجة كانت كما يحكي القرآن الكريم: {قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا}.

فمع كلّ هذه الأدلة التي هي الطريق إلى الهداية اتَّبعوا نماذج مادية كانت تمتلك بريقًا ماديًّا، وكانت تعتزّ بالأموال والأولاد، وكانت تعتز بالأشياء والأشخاص، وأعرضوا عن منهج الله سبحانه وتعالى الذي أنـــزله إلى العالم، وأعرضوا عن الرسول الذي يدعو إلى الله مع استعمال الأدلة كلها والبراهين.

إنها قضية تستوقف المتأمِّل، فقد استعمل أسباب الاتباع وهي الأدلة التي تحرّك العقول، لكنهم مع كل هذا أعرضوا عن المنهج، وأعرضوا عن النموذج الإنسانيّ الربانيّ الذي هو رسولٌ من رسل الله عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة وأكمل التسليم.

ونجد أن القرآن الكريم كلما حكى عن رسول من الرسل نبّه إلى أنه استعمل الدلائل والبراهين، فقال مثلاً: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ} فهو يكرّر استعمال الرسل للأدلة.

{إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ} وكما اتبع قومُ نوح من لم يزده ماله وولده إلا خسارًا، اتبع قومُ موسى أصحابَ المادة الذين يلمّعونها ويعبدونها.

وجاء موسى عليه الصلاة والسلام بعد ذلك بالآيات والبراهين والسلطان المبين، لكنهم مع كل هذه الآيات التي ذكرها القرآن مفصّلة اتبعوا أمر فرعون.

{وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ} [هود: ٩٦-٩٧] فمع أن هذا الذي اتبعوه لا صلة له بالصواب، ولا تقبله العقول، ولا يتناسب مع الفطرة، لكن الناس اتبعوا أمر فرعون، وأعرضوا عن المنهج والنموذج الذي أرسله الله سبحانه وتعالى.

فاستعمل رسلُ الله أسباب الاتباع، ولكنهم مع ذلك لم يجدوا ذلك الاتباع.

وهنا يخطر في الذهن سؤال آخر وهو:

لماذا لم يحصل الاتباع مع وجود أسبابه؟

ولماذا لم يحصل تبني المنهج واتباعُ النموذج؟

وما السبب في ذلك مع أنه كامل، ومع أنه يهدي إلى الرشاد، ويسوق إلى التوازن، ويخلص الإنسانية من الاضطراب؟ فما سرّ ذلك؟

ونبّه القرآن إلى السبب المانع وهو:

١- إقفال القلوب: فمحل التعقّل والتفكّر إنما هو القلب، قال تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا} [الحج: ٤٦] فإذا أُقفل القلب تعطل التعقل، وتحول الإنسان إلى صورة تشبه صورة الأعمى.

قال تعالى: {أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} [محمد: ٢٤] فإذا أقفلت القلوب لا ينفع الإنسان أن يرى المنهج الكامل، ولا ينفع أن يرى النموذج الذي يُقتدى به أمامه.

وإقفال القلب يكون بظلمانيته وتكدره حينما يخالف أمر الله، قال تعالى: {كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [المطففين: ١٤] وعندما حصل الرين على القلوب أقفلها.

وقال سبحانه وتعالى وهو يصف المنافقين: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ} [محمد:١٦] فإذا حصل إقفال القلب أو الطبع أو الختم عليه تعطل التعقّل، فكيف يبصر الأعمى النور؟

فالنور حاضر لكن المشكلة إنما هي في الإقفال.

٢- فقد التصفية والتزكية: أي إعراض الإنسان عن أسباب تصفية قلبه وأسباب نقائه.

قال تعالى: {فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ} [مريم: ٥٩] فجعل إضاعة الصلاة مقدمةً لاتّباع الشهوات بديلاً عن اتباع الحقّ في المنهج والنموذج.

وإضاعة الصلاة لا تعني أن يترك الإنسانُ فعلَها الظاهر وحسب، فمن الناس من يتحرك بحركات الصلاة لكنه مضيّعٌ للصلاة، لأنه تحرّك ببدنه في الصلاة لكنه كان غافلاً عن مقاصد الصلاة، وكان غافلاً عن الصلة بالله وهو في الصلاة، فكان موصولاً بالأشياء وهو في الصلاة، ومثلُ هذا مضيّع للصلاة.

ماذا ستنفعه الصلاة وهو في الصلاة بعيدٌ عن الذي يُصلي له؟

ماذا ستنفعه الصلاة وهو مقطوع لا صلة له؟

لقد قال الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم كما في الحديث المتفق عليه: **(أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنّ نَهْراً بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرّاتٍ، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟ قَالُوا: لاَ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ، قَالَ: فَذَلِكَ مَثَلُ الصّلَوَاتِ الْخَمْسِ، يَمْحُو اللهُ بِهِنّ الْخَطَايَا)**.

هكذا تكون التصفية.

وحين يقف المرء بين يدي الله تبارك وتعالى فإذا قال: "الله أكبر"، كان في حضرة الكبير العظيم سبحانه.

وإذا قال: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} أعرض قلبُه عن كل شيء يمكن للجاهل أن يستعين به في باطنه، فإذا استعان أيُّ إنسان في ظاهره بالأشياء فإنه إن كان صاحب معرفة وإيمان لا يستعين بها بقلبه، بل يمسك بالأشياء بيده، لكن قلبه متوجه إلى من بيده السماوات والأرض.

وإذا ركع قال لربه: خضعتُ لك وركعت، فأنا أنحني لك لأنني لا أستمد الأمر من غيرك.

وإذا سجد استغرق في حضرة قرب الله، إذ **أقربُ ما يكون العبد من ربّه وهو ساجد**.

وعندها يستطيع الإنسان أن يتّبع المنهج والنموذج.

لكنه إذا كان مضيعًا للصلاة فإنه سيجد نفسه وقد غلبته وهزمته، وسيكون مهزومًا أمام نفسه، والمهزوم أمام نفسه مهزومٌ أمام العالم كله، والذي يستطيع أن يمسك بنفسه يستطيع أن يكون السابق والغالب والأول.

وهكذا كان اتباع الشهوات بعد تضييع الصلاة.

أما الاتباع فإنه يحصل بالأسباب الآتية:

١ – التصديق: وذلك حين نعتني بأسباب الإيمان التي بها يرتفع التصديق بالغيب، وللإيمان أسبابه الكثيرة، وحينما يحصل الإيمان في القلوب سرعان ما يحصل الاتباع تلقائيًّا من غير تكلف.

ومن أسباب الإيمان اعتيادُ المساجد، ومنها الصحبة الصالحة، وذكر الله، وتلاوة كتابه وتدبّرُ معانيها...

قال تعالى مرتّبًا ومبيّنًا: {قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا} [آل عمران: ٩٥] فرتَّبَ الاتباع على التصديق.

{قُلْ صَدَقَ اللَّهُ} فوجِّه قلبك إلى التصديق بالغيب، وعمّر قلبك بالإيمان، فبعدما نظرت إلى الدلائل والحجج، عمّرت قلبك بالأنوار، وسلكت منهج التصفية، فكنت مستعدًّا لاتباع ملّة إبراهيم.

فكان الاتّباع مرتّبًا على التصديق.

وقال الله تبارك وتعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ} [محمد: ٣] وهكذا صرح الله سبحانه وتعالى بأن الإيمان إنما هو سبب الاتباع، فإذا لم يحصل في القلب التعمير بأنوار الإيمان لا يمكن أن يحصل الاتباع.

إذًا: إقفالُ القلب سببٌ للإعراض واتّباع الشهوات، وتصفيةُ القلب وتعميرُه بالإيمان سببٌ للاتّباع، فإذا رأى الإنسان من نفسه ضعف الاتباع فليتهم إيمانه.

فالمشكلة لا تكمن في عملية آلية يتحرك البدن بها، إنما هي في البواعث الباطنة، لأن بدن الإنسان لا يتحرك إلا وفق ما في الباطن من البواعث: {وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ}.

فبانعدام الإيمان ينعدم السلوك الذي يوافق الصواب والرشاد، وبوجود الإيمان يحصل الاتباع، ولهذا جاء في الحديث: **(لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن)** إذ لو وجد الإيمان في قلبه لمنعه من المخالفة ولساقه إلى الطاعة.

فعلينا أن لا نستغرب الاضطراب السلوكيّ الذي يحصل الآن، لأننا نقصر في تعمير القلوب بأنوار الإيمان، ونقصر في اتخاذ أسباب هذا التعمير.

٢- التوبة: والتوبة تسبق الاتباع، لأنها عهدٌ مع الله تبارك وتعالى وعقد يبرمه الإنسان، يقول فيه لربه: قد تركت ذنبي يا رب، وندمت وتألمت لما فعلته من قبل، وعزمت على أن لا أعود، فهذه هي التوبة، وإذا كان الذنب يتعلق بحقوق العباد ردّ المظالم إلى أهلها، فأسباب التوبة أو شروطها ثلاثة أو أربعة، فإذا حصل هذا العقد الصادق كان هذا مهيّأً للاتباع.

مُصرٌّ على الربا يريد الاتباع؟!! هيهاتَ هيهات..

مُصرٌّ على مخالفة القرآن، ومصرٌّ على الذنوب وعلى العصيان وعلى سلوكٍ ينتسب إلى الفسوق... ويريد الاتباع؟!! حديثُ خرافةٍ يا أمَّ عَمرٍو.

وهكذا توجه ملائكة الله بالدعاء فقالوا: {فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ} [غافر: ٧].

وهكذا رتّب القرآن الاتباع على التوبة.

٣- نعمة الهداية: فإذا وجدتَ قلبك متوجهًا إلى الطاعات، فيفرح بما يفرح الله تعالى به، ويكره ما يكرهه الله، فاسجد لله شكرًا، لأنه تبارك وتعالى قد وهبك نعمة الهداية، وما أجلَّها وما أعظمَها من نعمة!

قال تعالى: {وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ} [الحجرات: ٧] وإياك أن تقول: إذا كان الأمر نعمةً تتنـــزل من السماء فما ذنبي أنا؟

أقول لك: تنبَّهْ أنني حدثتك قبل حديثي عن هذه النعمة عن أمرين اثنين هما: التوبة والإيمان.

فإذا كنتَ مقصّرًا في التوبة، ومقصرًا في سلوك سبيل تعمير القلب بالإيمان، فلا تتحدث عن نعمة الهداية، لأن نعمة الهداية كرامةٌ يعطيها الله سبحانه مَن أقبل عليه بالتوبة، وسلك سبيل تعمير القلب بالإيمان، فإن أنت أقبلتَ أقبَلَ عليك، **وإن أتيت تمشي أتاك هرولة**.

فالمطلوب منك التوبة، وأن تأخذ بأسباب الإيمان، وأما كرمه وفضله فهو الذي ينهمر على عباده أنه يحبّب إليك الطاعة ويكرّه المعصية، وعندها لا تقدر على المعصية.

فأول طريقك مجاهدة، وآخره إكرام ونعمة وولاية، فيتولاك الله، فلا تستطيع عندها مخالفة أمره.

ثم إن الذي يستعرض القرآن يجد عجبًا، فيجد قريبًا قد أعرض، ويجد بعيدًا قد أقبل!!

إنها حالة تخرج الإنسان عن العصبية النسبية، فالله سبحانه وتعالى يحكي في القرآن منبّهًا إلى بعد القريب بقوله: {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ} [القصص: ٧٦] فالقرابة النسبية حاصلة لكنه لا ينتفع.

وكذلك قوله: {وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي} [هود: ٤٥] فكان الجواب: {إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ} [هود: ٤٦]

فابن نوح كافر، وقارون قريب موسى لكنه كان باغيًا.

والقرآن يحكي عن عم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فيقول: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ} [المسد: ١].

وفي نفس الوقت يقول: {وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى} فقد جاء من المكان المنسيّ، حيث لا صلة بينه وبين المرسلين، لا في المكان ولا في النسب، ولكنه جاء مصدقًا: {قَالَ يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ، اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ، وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ، أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنْقِذُونِ، إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ، إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ} [يس: ٢٠-٢٥].

وهكذا أعرض القريب وأقبل البعيد، وذلك حتى نخرُج عن العلاقات النسبية إلى الصلة التي تجمع الإنسان إلى الإنسان: {فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا} [آل عمران: ١٠٣] وشتان بين القرابة النسبية وصلة الأخوة الربانية.

وهذا مصعب بن عمير الصحابيّ الجليل (وهو قرشيّ مكيّ) مرّ بعد غزوة بدر بأنصاريّ مدنيّ، فوجده قد أسر أخاه من أمه وأبيه.

ماذا قال له؟

قال: شُدّ وَثاقَه، وأكثِر من الطلب في فدائه، فإن أمه ثريّة.

إنه نظر إلى الصلة فرأى أن صلة الأخوة الربانية عنده وقد تعمّر قلبه بالإيمان أقوى من الصلة النسبية.

وهكذا لابد لنا من عودةٍ نتأمل فيها، ونرجع فيها إلى أنفسنا ونقف وقفة صادقة ونسألها بصدق ونقول:

لماذا نقصر في الاتباع وقد عرفنا أسباب الاتباع، وعرفنا أسباب الإعراض، وما بقي بعدها للإنسان من حجة يعتذر بها؟

اللهم لا توجّه قلوبنا إلا إليك، ولا تجعل اعتمادنا في الأمور كلها إلا عليك، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أقول هذا القول وأستغفر الله.